فلسفة الاجتماع واصل الجرائم (١)

كل حيوان وكل نبات وكل نوع من الحيوان والنبات ينازع غيرهُ من الاحياء اسباب المعيشة ويغالب العوامل التي تعمل على اهلاكهِ لكي يستبقي حياتهُ ويلجأ في ذلك الى حيل كثيرة مختلفة . فبعض الحيوانات تنجو من الهلاك بسرعتها وخفتها وبعضها تذود عن نفسها بقوة ابدانها ومخالبها وانيابها وبعضها لتتقي شر اعدائها بصلابة قشرها او نتانة ريحها او قبح منظرها او بشاعة طعمها . ومن الحيوانات ما يعتمد على اختفائهِ عن عدوهِ او على تعذر الوصول الى المكان الذي يعيش فيهِ او على المعيشة على بدن حيوان قوي . ومنها ما يحافظ على بقاء نوعهِ بكثرة تناسلهِ ومنها ما يقوم بذلك بدهائهِ وسعة حيلهِ فيتخلص من اعدائهِ ولو كانوا اسرع منهُ واقوى . فالذرائع والحيل التي تلجأ اليها الاحياء لكي تنجو من الهلاك كثيرة مختلفة تفوت الحصر ولكن اهمها واعمها في الحيوان الاجتماع والتعاون والعمل جماعات متآلفة

فمن الحيوان انواع كثيرة يساعدها على البقاء تآلفها وسيرها جماعات منها الفيل والجاموس الاميركي والظبي وحمار الوحش والذئب والنحل والنمل والزنابير . ولهذه الحيوانات ذرائع اخرى لاستبقاء حياتها ولكن تعاونها في المعيشة اقوى ذرائعها وقد يغنيها عن كل ذريعة اخرى

والانسان على وجه العموم محروم من وسائل الدفاع والعدوان التي لغيرهِ من الحيوانات فليس لهُ سرعة الحيوانات التي من قدمهِ ولا خفتها ولا يقدر ان يخفي عن بصر غيرهِ بتغيير لونهِ او مشابهتهِ لشيء من الاشياء ولا ان يعيش حيث يصعب وصول اعدائهِ اليهِ . ولكنهُ رغماً عن ذلك قد ساد جميع الاحياء التي على هذه البسيطة الأ بعض الاحياء المتناهية في الصغر التي تعيش في جسمهِ غير انهُ قد صار في امكانهِ ان يجعل بعض هذه الاحياء غير مضر بهِ . وقد نال هذه السيادة بتآلفهِ ومعيشتهِ جماعات متعاونة ولو عاد الى المعيشة افراداً متقاطعة لما اجداهُ عقلهُ ولا كانت حالهُ افضل من حال الغورلاَّ . فسيادة الانسان للحيوان والطبيعة قائمة على التخصص في الاعمال ولا تخصص في الاعمال حيث لا اجتماع . فاذا تفرق الناس افراداً او ازواجاً كان على كل فرد او على كل زوج ان يعمل كل ما يجب عملهُ استبقاء للحياة فلا يتقن عملاً من الاعمال لانهُ لا يقدر ان يقصر قواهُ على عمل مخصوص . ولكنهُ اذا

(١) مقتطفة من كتيب في الجنون والجرائم للدكتور مرسير

كان جماعات امكنهُ ان يختص بعمل دون غيرهِ فيتقن كل فريق منهُ عملاً من الاعمال وينفع المجموع بهِ . فاذا تفرغ بعض الجماعة لجمع القوت وبعضها لمحاربة العدو توفر لديها القوت وقويت على محاربة عدوها ولا يكون لها ذلك اذا كان على جميع افرادها ان يجمعوا القوت وان يحاربوا ايضاً

ثم ان من الاعمال ما لا يمكن عملهُ الاَّ اذا اعدَّت الجماعة لبعض افرادها جميع ما يحتاجون اليهِ من اسباب المعيشة لكي يتفرغوا لهُ . فاذا كان على كل انسان ان يسعى لتحصيل قوتهِ وان يحمي عيالهُ ويبني بيتهُ ويحوك ثيابهُ ويحتطب وقودهُ ويصنع الآنية والادوات التي يحتاج اليها قصَّر دون اتمام ذلك ولم يستطع ان يعمل شيئاً من الاعمال ذات النفع العمومي . لو كان ذلك لما كانت بيوت ولا طرق ولا جسور ولا بواخر ولا مركبات ولا قلاع ولا آبار ولا مطاحن ولا كتب ولا وُجد شيءٌ من اسباب الراحة والهناء . لو لم يتآلف نوع الانسان ويجتمع جماعات لما وصل الى ما وصل اليهِ الآن بل بقي مثل القرود الشبيهة بالانسان لا يعمل عملاً يعدهُ جريمة ولا يفعل شيئاً يحسبهُ جنوناً

اذا عُزل انسان وحدهُ في مكان بعيد عن الناس لم يمكنهُ ان يرتكب جريمة لان الجريمة امر يضر بالاجتماع البشري فلا جريمة حيث لا اجتماع . فاذا عُزل انسان في جزيرة او صحراء بعيدة عن العمران لم يكن في امكانهِ ان يسرق او ينهب او يغتصب او يقتل او يخون حكومتهُ او يتلف مال غيرهِ او يتشل دراهمهُ

اوجدت الطبيعة في الحيوان غرائز لابقاء نوعهِ والاحتفاظ بسلامتهِ فغرست فيهِ حب توليد النسل والعطف على الصغار وغريزة طلب الطعام عند الجوع وغريزة الهرب من كل ما يميتهُ او يضرهِ

وبين غرائز توليد النسل وغرائز وقاية النفس بعض التضاد . فبعض الحيوانات التي لا بد من موتها عند ولادتها نسلها ومن الحشرات انواع كثيرة تموت اذا باضت . ولا تخلو هذه الغرائز من التضاد في الانسان ايضاً فان الحمل والوضع يضعفان المرأة فضلاً عن تعريضها اياها للخطر . وتربية الاولاد تقتضي عناءً كثيراً ويضطر الوالدون الى الكدح وحرمان انفسهم من كثير من اسباب المعيشة والراحة لكي يوفروها لاولادهم . وفي الانسان والحيوانات التي تعيش جماعات نوع آخر من الغرائز يحملها على جر المنافع لجماعتها والامتناع عن اتيان كل امر يضر بالجماعة ولهذه الغرائز في بحثنا هذا من الاهمية ما ليس للغرائز الاخرى لا بد للافراد من ان يحرموا انفسهم بعض الامور التي تستحثهم عليها غرائز حب النفس

وحب النسل لكي يمكنهم ان يعيشوا مجتمعين فالانسان الذي يعزل في جزيرة ليس فيها بشر غيرهُ يستطيع ان يستولي على كل شيء يريدهُ فيها ويستخدمهُ لمنفعته الخاصة ويحجز كل حيوان يقدر على تسخيره . فيستطيع مثلاً ان يستولي على ثمار الشجر ولآلئ البحر وجواهر الارض من غير معارض . ولكن الانسان العائش في الجماعة ليس لهُ مثل هذه الحرية فليس لهُ مثلاً ان يمشي في مكان من الامكنة اذا كان مشيهُ فيهِ يضر بغيره وليس لهُ ان يستولي على ما لغيره ولا ان يأخذ شيئاً ما لم يؤل اليهِ حق تملكهِ ببيع او هبة او مقايضة . وسبب ذلك هو انهُ لو اتبع كل واحد من الجماعة هواهُ من غير وازع ولا رادع لاختل نظام الجماعة وانفرط عقدها . واذا اختلفت افراد القطيع فسار كل فرد منها في الجهة التي يريدها غير متبع الجهة التي يسير فيها القطيع او سار بالسرعة التي يلوح لهُ ان يسير بها غير معدل سرعتهُ لتقرب من سرعة غيره تبدد القطيع . واذا كانت سلامة الافراد وراحتهم تتوقفان على تآلفهم جماعة ذهبت سلامتهم وراحتهم بهذا التبدد . وبقاء النوع يتوقف على سلامة الافراد فتبدد الجماعة اذن من اسباب انقراض النوع

وواضح مما تقدم انهُ لا بد لكل فرد في الجماعة ان يُحرَم بعض الحرية ويكبح بعض اهوائهِ لكي يستقيم امر الجماعة بل لا بد لهُ ان يقوم بامور كثيرة لا يستقيم امر الجماعة بدونها من ذلك ان يدافع عنها اذا هاجمها مهاجم وان لا يضنّ بحياتهِ عليها اذا كان في تعرضهِ للموت منفعة لها ويرى مما تقدم ان بين غرائز حب النفس وغرائز الاجتماع والتعاون بعض التضاد ولا تسلم الجماعة ويبقى النوع الاَّ بتغلب الغرائز الاجتماعية

واساس الاجتماع البشري العائلة . اذا بلغت صغار اكثر الحيوان اشدها وصارت قادرة على اصابة رزقها من غير معين انفصلت عن والديها وصارت تنازعهما اسباب المعيشة كما تنازع غيرهما . ولكن من الحيوان ما تبقى معهُ صغارهُ مدة بعد ان تبلغ اشدها . ففي هذا البقاء اصل الحياة الاجتماعية ومبدأها في الحيوانات التي تنضم صغارها الى كبارها ولا تفارقها بعد ان تبلغ اشدها . واول مجموع تعاون فيهِ البشر هو العائلة ثم كبرت العائلة فكان منها القبيلة ولما كبرت القبيلة تميَّز افرادها بعضهم عن بعض بطوناً في القبيلة الواحدة وكان كل بطن مؤلفاً من عائلات او بيوت . ومن امتزاج القبائل تألف الشعب فالشعب يتألف من عائلات وكل ما يؤول الى فرط عقد العائلة او تفكيك عراها يؤول الى ملاشاة الشعب . وفي الانسان غرائز تجعلهُ يتمسك بالعائلة ويحرص على البقاء فيها والذود عنها منها محبة الزوجين الواحد للآخر ومحبة الوالدين للاولاد ومحبة الاولاد لوالديهم . فهذه الغرائز تؤول

الى حفظ الاجتماع لانها تقوي رابطة العائلة ولكنها قد تؤدي الى عكس ذلك وتضر بالاجتماع فمحبة الوالدين مثلاً قد تقودهم الى تهريب ابنائهم من الجندية او الافراط في تدليلهم فينشأوا على محبة الذات لا يراعون للغير حرمة ولا حقًّا. وقد تقودهم الى الاهمال في ما يجب عليهم للجماعة لكي يتفرغوا لشؤون اولادهم. ومحبة الزوج او الزوجة تتحوّل احيانًا الى غيرة فتبعث على ارتكاب الجرائم

ففي الانسان اذن ثلاثة انواع مهمة من الغرائز غرض الواحد منها ابقاء النوع وغرض الآخر وقاية الفرد وغرض الثالث المحافظة على الاجتماع البشري. وكل من هذه الانواع ضروري لتمام الغرض المقصود بالنوعين الآخرين ولاستقامة امر الانسان عمومًا ولكن بينها بعض التضاد وغرائز كل نوع تقيّد غرائز النوعين الآخرين

وجميع هذه الغرائز او الاميال قديمة العهد في الانسان كبيرة الاهمية ولكنها تتفاوت في القدم والاهمية. فقد ورث الانسان غرائز توليد النسل ووقايته نفسهُ من الاحياء الاولى اما غرائز المحافظة على الاجتماع فلم تظهر الاَّ في الحيوانات الراقية اي انها ظهرت في عهد قريب من العصر الحاضر في نظر العلماء الذين يبحثون في علم الحياة والنشوء ولكنهُ بعيد جدًّا اذا حسبنا الزمن الذي انقضى عليهِ بالسنين والقرون. وتتوقف قوة الغريزة على امور كثيرة منها مبلغ قدمها في طبيعة الحيوان الذي هي فيهِ. وعليهِ فغرائز توليد النسل ووقاية النفس اغلب على طبائع الانسان فاذا تعارضت غريزة المحافظة على الاجتماع وغريزة اخرى من هذه الغرائز كُبحت غريزة المحافظة على الاجتماع الاَّ اذا قام ما يقويها. ولكن غرائز المحافظة على الاجتماع ضرورية للانسان في هذا العصر اكثر من الغرائز الاخرى. فاذا امتنع بعض الافراد من توليد النسل او منعوا منهُ واذا قصروا آجالهم او قصرها غيرهم لم يختل امر البشر ولا انقرضوا ولكن يستحيل على الانسان ان يعيش في هذا العصر الاَّ مجتمعًا واذا فرّقت افراد جماعة من البشر وعزلت كلاًّ منهم عن الباقين من غير ان ينضموا الى جماعات اخرى بادوا. فغرائز المحافظة على الاجتماع اضعف من غيرها لانها احدث عهدًا ولكنها ضرورية اكثر من غيرها لبقاء نوع الانسان وبقاء افرادهِ ايضًا واذا تعارضت مع غيرها وجب تقديمها عليهِ

ولكن غرائز المحافظة على الاجتماع سخّرت غرائز وقاية النفس لخدمتها بوضع قانون الجنايات والعقوبات فهذا القانون بداية سند لغرائز المحافظة على الجماعة يسندها لكي تقوى على غرائز وقاية النفس

والجريمة بوجه عام اتيان عمل يحظرهُ القانون والقانون يحظر الاعمال التي تؤدي الى اختلال في نظام الاجتماع . وليس من الضروري ان يكون غرض الشارع من كل قانون وضعهُ ان يحظر امراً يؤدي الى اختلال الاجتماع البشري ولا من الضروري ايضاً ان يكون كل عمل يحظرهُ القانون مما يؤدي الى مثل هذا الاختلال ولكن القانون والشرائع تحظر الامور التي اذا كان الناس احراراً ان يأتوها ادّت الى مثلهِ اي تحظر الامور التي اذا قويت في الانسان غرائز المحافظة على الاجتماع حتى تغلبت على غيرها جعلتهُ يستنكف من اتيانها وينفر منها . وقد قويت هذه الغرائز في اهل المدنية فتراهم ينفرون مثلاً من قتل الام حتى انك لا تكاد تسمع عن متمدن انهُ قتل امهُ ولكن بعض القبائل الهمجية لا تنفر من ذلك تنفر اهل المدنية ومنها قبائل لا يستنكف افرادها من قتل امهاتهم اذا شخن ووهنّ

وغرائز المحافظة على الجماعة غالبة على طبائع الحشرات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والزنابير . فلا جرائم ولا عقوبات في خلية النحل وقرية النمل وبيت الزنابير . وليس الرادع عن ارتكاب الجرائم صرامة القانون ولا يقظة رجال الامن والضبط بل ان اهواء كل فرد في هذه الجماعات تتفق مع خير الجماعة وصلاح امورها فتمنعهُ من ارتكاب الجرائم . فصنف العملة من النحل فاقد لغريزة توليد النسل ويوجهُ كل قواهُ الى العمل والعناية باليض الذي تبيضهُ الملكة ولا يكون في الخلية الواحدة غير ملكة واحدة . وهو حريص على العمل بطبعهِ يجمع الطعام لنحل خليتهِ كلهِ وكل نحلة تتناول ما تحتاج اليهِ من القوت الذي يجمع في الخلية ولا تحجم عن التعرّض للموت دفاعاً عن رفيقاتها . ويثور النحل بعضهُ على بعض في كل خلية كل سنة ولكنهُ لا يقتل بعضهُ بعضاً وتنتهي ثورتهُ بانفصال جانب منهُ وتأليفهِ جماعة مستقلة . فالنحل والنمل والزنابير لا ترتكب الجرائم لانها ليس لها اهواء او غرائز تحملها على عمل ما لا يتفق مع مصلحة المجموع . ولعل امتناع بعض النساء في جماعات البشر الراقية من الزواج وتفرغهن للاعمال النافعة للبشر عموماً كوساطة المرضى وسد حاجات الفقراء وجه من وجوه الارتقاء الاجتماعي يقربنا من الزمن الذي تصبح فيهِ اميال الانسان الطبيعية تتفق مع مصلحة المجموع الذي هو عضو فيهِ